الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾ [التوبة] ولم يقل : وجعل كلمة الله هى العليا ؛ لأنها ليست جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شيء إلى شيء ، أما كلمة الله فهى العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الوعد : هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون ﴿**لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ..**﴿٦﴾﴾ [الروم] وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس ؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذى كنتَ ستفعل من أجله .

إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثقْ أنه محقق .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..**﴿٢٤﴾﴾ [الكهف] والمعنى : اجعل لنفسك مَخرَجاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به ، بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .

إذن : أدركْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب

بينك وبين ما أردتَ قلت : شئْت ، ولكن الله تعالى لم يشأ .

والله تعالى لا يُخلف وعده ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرجه عن مراده .

وإنْ شئت فاقرأ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾ [المسد]

ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم ؟ أليست له حرية الاختيار كهؤلاء ؟ بل ألم يسمع هذه السورة ؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول في نادي قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه ؟

إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .

ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعني البشارة بالخير القادم في المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد في حقِّه ؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ⑭ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ⑮ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑯﴾ [الرحمن]

وقـالوا : هذا الكلام معـقـول بالخلق من نعم الله ، لكن مـاذا عن قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فأىُّ نعمة فى النار وفى الشواظ[1] ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه ، ونحذرك من عـاقبـة الكفر لتنتـهى عنه كالوالد الذى يقـول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] نفى عنهم العلم أى : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾

إذا رأيت فـعلاً نُفى مـرة ، وأُثبت مـرة أخرى ، فـاعلم أن الجهـة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمـون ظواهر كل شىء ، إنما ظـواهر الدنيا فـحسب ، ولا يعلمـون بواطنها ، فما بالك بالآخرة ؟

حين تتأمل أمور الدنيـا والقوانين الوضعية التى وضعـها البشر ، ثم رجـعوا عنهـا بعد حيـن ، تجد أننا لا نعلم من الدنيـا إلا الظاهر ، فمثـلاً قانون الإصلاح الزراعى الذى نعـمل به منذ عام ١٩٥٢ ، وكنا

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

مُتحمِّسين له نُمجِّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه ؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق فى هذا العصر ، روسيا التى تبنتْ النظام الشيوعى ودافعتْ عنه بكل قوة هى التى نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها ؛ لذلك يقولون : ما انحدرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدى أصحابها . ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلِصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التى ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت فى المقاومة اليدوية ؟

كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث فى البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات فى الماضى ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفى أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ، وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا ؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذى اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

هذا عن علْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن فى غفلة عنها ؛ لذلك يقول سيدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة[1] .

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه (فى تفاسيرهم) عن الحسن قال : ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلى . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٤٨٤] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧)﴾ [الأنفال] فنفى الرمى ، وأثبته فى آية واحدة ؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبات لشىء ، والنفى لشىء آخر . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى تجبره على المذاكرة فيفتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما اختبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ؛ لأنه فعل فعْل المذاكرة ، ومع ذلك هو فى الحقيقة لم يذاكر ؛ لأنه لم يُحصِّل شَيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله ﷺ رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفار ، لكن ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. (١٧)﴾ [الأنفال] هذه الحفنة ؛ لأن قدرتك البشرية لا توصل هذه الرمية إلى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦)﴾ [الروم] أنه استثنى من عدم العلم فئة قليلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر النظم الدنيوية والقوانين على الجميع ؟ قالوا : لأنه حين وُضعت هذه القوانين وشُرعت هذه النظم كانت هناك فئة ترفضها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذى يعلمونه من الحياة الدنيا فيه مُتَع وملاذ وشهوات ، البعض يعطى لنفسه فيها الحرية المطلقة ، وينسى عاقبة ذلك فى الآخرة ؛ لذلك فإن أهل الريف يقولون فيمن لا يحسب حساباً للعواقب : (الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه)

واقرأ قوله تعالى :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران]

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات فى الآخرة ، والعاقل هو الذى يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هى مدة بقائك فيها ، هى عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهى بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهى ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية ؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة ؟

لذلك لما سُئِل الإمام على : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال : لم يدع الله الجوابَ لى ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا ؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب بالتالى مَنْ يعمرها لك ، وإنْ كنتَ تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك ؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ فى وجهه ، ويبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير فى ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ [الروم] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون ؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهِم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقظهم ، إنما ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ

هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم] يعنى : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا فى أنفسهم ، فيأتى لهم بالدليل مرة فى أنفسهم ، ومرة فى السموات والأرض .

الدليل فى الأنفس يقول لك : فكِّر فى نفسك . أى : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال فى الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد .

تأمل فى مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون فى جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما فى جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْى إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذى لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملَّك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامتْ الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

تأمل فى نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهى مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة فى القصبة الهوائية ، فبلا شعور تشرَق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التى لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك.

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحة يُسمونها فتحة الفؤاد ، هى التى تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل فى إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) .

كذلك تأمل فى عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً ؟ وفجأة تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث ؟ والأمر كذلك فى شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحمُّل فى الأمعاء وفى المثانة ، ففى لحظة يزيد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا فى أنفسنا ، ويكفى أن نقرأ : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] فدعانا ربنا إلى البحث فى أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض ؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما فى السموات والأرض من آيات ، أما نفسى فهى أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنفُسِهِم .. (٨) ﴾ [الروم] أى : فكِّروا فى أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومرائهم ، فحين تجادل

الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع فى مكانة أو منزلة ؛ لذلك تصل بالنظر فى نفسك إلى الحقيقة .

لذلك يخاطب القرآن النبى ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ] يعنى : يا مَنْ تفكِّرون فى صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر .. الخ أريد منكم شيئاً واحداً ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ .. (٤٦) ﴾ [سبأ] أى : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك فى النفس الرغبة فى العُلُو والانتصار ؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعنى : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر فى أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السموات والأرض ﴿ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨) ﴾ [الروم]

وهناك آية أخرى تقدم التفكُّر فى السماء والأرض على التفكّر فى النفس ، هى قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السموات والأرض بما فيهما

من أرض وسماء وشمس وقمر .. إلخ فهى كما هى منذ خلقها الله لم تتغير ، وهى تؤدى مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهى بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

إذن : الآيات والأدلة فى أنفسكم وفى السموات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى ؟ قالوا : ما دامت السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهى الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر فى نفسك ؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله - عز وجل - فحينما يضرب لى مثلاً يضرب لى بالأقوى ، فإنْ لم أُطقْه يأتى لى بالأقل ، والمستفيد هو الذى ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ⑧ ﴾ [الروم] أى : من الكواكب والأفلاك والنجوم التى نشاهدها فى جَوِّ السماء ، وكانوا فى الماضى لما أرادوا أنْ يُقرِّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هى السموات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. ⑫ ﴾ [فصلت]

فأين السماء من الكواكب التى نشاهدها ؟! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر ؟ بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة ، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هى السموات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفلاحسة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذى مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء ؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون فى قوله تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعى .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات ـ مع أنهم كفرة ـ يعلمون الغيب لأنهم توصَّلوا بحسابات دقيقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة ـ كما سبق أنْ قُلْنا ـ ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذى أعطانا الله المقدمات التى توصل إليه ، وقد توصّل

العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه أيضاً من الآيات التى تُقدِّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨) ﴾ [الروم] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس ؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهى مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشيء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : مخلوقة بحساب ؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..

(٥) ﴾ [يونس] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب ؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باق ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨) ﴾ [الروم] فبعد أن ينقضى هذا الأجل الذى أجَّلَه الله تُكوَّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشىء الثابت ، إنما يزول وينتهى .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الروم] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم فى تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم فى عقابهم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا فى المجتمع ، فقلنا لهم : فما بال الذين ظَلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب ؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه ؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها ؟ فمن أفلت من أيديكم فى الدنيا عاقبه الله تعالى فى الآخرة ، ثم أنتم ترونَ مبدأ الثواب والعقاب فى كل شىء ، فالذى أطلق لنفسه العَنان فى الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعَاثَ فى الأرض فساداً ، ولم تنلْه يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الروم]

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء ؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمى من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقَب فيها أصحاب باطن المنكر .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ـ خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهى كافية لمن اعتبر بها ـ فهؤلاء لم يسيروا فى الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع فى الدنيا فضلاً عما سيقع فى الآخرة .

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين فى الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغى أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا فى الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم ؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٩﴾﴾ [الروم] لكن أنسير فى الأرض أم على الأرض ؟ هذا